ة الثاني:

لعالم العربي؟

قرير فقد
حركاً قوياً
مة رابطة
نتاجية
سورها في
عالية التي
تنافسية

العربية
إنتاجها.
في المنطقة
لترجمة)
لإمكانات
يئة المناخ
ت إلى أن
ة العربية
الزائدة،
والكفاءة
فلا زالت
رأس المال
لاب لإتمام
.
يلة نشر
الضعف
ضحة في
ائية التي
لتشكيل
الصحف
١ مواطن
واطن في
الحريات
سيما تلك

زال تتسم
المتوفرة
كل مليون
كتاباً في
ن السكان.
جوانب
ولا سيما
من ضعف
غياب في
بيولوجيا
ربية من
اق الدولة
لبه رواتب
العلمي
يزيد عدد
جال على
سط عالمي
أيضاً أن
م العربي.

جتمعنا
نظيره في
ت السائدة
تقوم على
ن لها آثار
يز ثقتهم
ائيلي وما
الأجيال
فلا تؤدي
دم النافع

من المواد الإعلامية. ومحطات الإذاعة المحلية، وإلى حد كبير، تكرر ذاتها في التنافس في تقديم ألوان الموسيقى الهابطة والخالية حتى من الذوق الفني. أما تلفزيون فلسطين، فلم يتجاوز جمهور مشاهديه في فلسطين عن ٣٠ في المائة من الجمهور الفلسطيني، لعدم قدرته على تقديم المادة الإعلامية المفيدة التي يطلبها جمهور المشاهدين. ومن ناحية أخرى، يبقى تلفزيون فلسطين يمثل وجهة نظر السلطة الرسمية ويلغي وجهات النظر الأخرى؛ فالنشرات الإخبارية فيه تقتصر على سرد لبيانات مؤسسات السلطة الرسمية، ولا تساعد المشاهدين في بناء وجهات نظر من الأحداث المختلفة، لذلك يلجأ المشاهدون إلى المحطات الفضائية الأخرى التي توفر مثل هذه الفرصة.

أما مراكز البحث التي تعاني من ضعف شديد في مواردها البشرية والمادية، فلا زال اللون السياسي يلعب دوراً مهماً في تعيين الأشخاص القائمين عليها. ومن ناحية أخرى، تقوم إدارات بعض هذه المراكز البحثية بتطويع برامجها البحثية مع رغبات مجتمع المانحين من أجل الحصول على التمويل بغض النظر عن أهمية البرنامج للمجتمع.

أما مثقفونا، إلا من رحم ربي، فقد تخلوا عن دورهم في نشر المعرفة والقيم، واقتصر سعيهم على تحقيق مشاريعهم الشخصية. على سبيل المثال، أساء الكثير من أساتذة الجامعات لمهنتهم عندما اتخذوا هذه المهنة وسيلة لجمع المال والثروة بدلاً من زرع القيم المعرفية والأخلاق العلمية في نفوس طلابهم ونشرها في المجتمع. والجامعات عندنا تتنافس فيما بينها في طرح برامج للدراسات العليا على الرغم من قصور إمكاناتها المادية والبحثية. ويأتي هذا التنافس على الطلبة لإيجاد حلول للمشاكل المالية التي تعاني منها جامعاتنا، ما تسبب بتدهور نوعية التعليم المتوفر لهؤلاء الطلبة وقدرتهم على مواجهة تحدياتهم المهنية بعد التخرج وإنتاجيتهم بعد الالتحاق في سوق العمل.

إن تخلي أصحاب المعرفة، من مؤسسات وأفراد، عن أدوارهم قد تسبب بانتشار القيم السلبية مثل غياب النزاهة، والمسؤولية، وانتشار الفساد الاجتماعي والأخلاقي، وأمراض أخرى لا مجال للخوض فيها في هذا المقال. وكما يشير التقرير أصبحت القيمة الاجتماعية العليا تنحصر في الثراء والمال بغض النظر عن الوسائل المؤدية إلى ذلك، ما أدى إلى غياب الإبداع والنشاط الإيجابي الفاعل والعقل النقدي.

ما العمل؟

ومن أجل مواجهة تفاقم هذه الأزمة لا بد من مراجعة نقدية شاملة لكافة عناصر الأداء الفلسطيني لتحديد جوانب الخلل، وتحديد الوسائل الكفيلة بإصلاحها. لا أن يقتصر الإصلاح في مجالات شاركت عناصر خارجية في تحديدها، مثل إدارة المال العام، وتمكين اقتصاد السوق وغيرها من البنود، التي تعمل مؤسساتنا الحكومية بكافة مستوياتها على تنفيذها بكل جد على الرغم من كل العوائق. إلا أن هذا النوع من الإصلاح يبقى في إطار «كلمة حق يراد بها باطل»، وحتى يكون الإصلاح جاداً ذاً مغزى لا بد أن يطول مؤسساتنا العامة والخاصة والأهلية، بما في ذلك مؤسسة الأسرة والمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام حتى يعود للإنسان الفلسطيني بريقه وإبداعه. ومن أجل أن يشارك الجميع في هذه الدعوة، فليبدأ كل منا بإصلاح نفسه ومحيطه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

* باحث اقتصادي

الإعلام وتعليب الرأي العام

(القابلية والتحديات)

تيسير مشارقة *

بعد الحادي عشر من سبتمبر والانشغال الأميركي بملاحقة الأصوليين من القاعدة و«الإرهابيين»، انشغل الإعلاميون من جانبهم بمصير وسائل الإعلام التي تعرضت لأشرس حملة في التاريخ الأحدث. فقد أصاب الإعلام ما أصاب «الإرهاب» من ضربات موجعة تكاد تضع مئات علامات الاستفهام على مصير الإعلام الحر و«نظرية حرية الإعلام الأميركية»، وعلى نظرية «المسؤولية الاجتماعية» للإعلام التي نمت وترعرعت في الولايات المتحدة.

بدأت الدول جميعاً في الأرض كلها تعد كلمات الأقوال والتصريحات وتضع حرية الكلام تحت المجهر في ظل الحملة الشعواء لملاحقة الإرهابيين في عقر دارهم. وأصبحت مقولة «التحريض على العنف والإرهاب» توصم كل من يقول «لا» للغطرسة أو يمتعض من الانفلات اللاعقلاني لمتاهة الحرب.

دخلت الشعوب والحكومات في الحوصلة أو الصدفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ والتحوصل ازداد انطباقاً أكثر بعد الإعلان السافر بالرغبة في غزو العراق، ومعاقبة ثالوث الشر (العراق، إيران، كوريا الشمالية). فالتلويح الأميركي وتلاه البريطاني بعصا الحرب الغليظة، جعل الدول المصابة بمرض الإرهاب ترتعد خوفاً، وهذه الهراوة الغليظة لم تترك أحداً من خطرها حتى وصل الرذاذ أوروبا الليبرالية (فرنسا وألمانيا)، وأصبح، بالتالي، من ليس مع «حملة أميركا ضد الإرهاب» مريب ومرتاب به.

لقد استخدمت النظم السياسية الكبرى ماكينة الإعلام في تحقيق أغراضها. ومن أساليب الهيمنة والسيطرة الإعلامية وآليات تصنيع الرأي العام، نذكر:

الأسلوب الأول: الإغراق، فقد قامت الوكالات العالمية الكبرى، وشبكات التلفزة العالمية والصحف الكبرى بإغراق العالم وإمطار الشعوب بأهداف الحملة ضد الإرهاب في أفغانستان والعراق، بحيث عرف القاصي والداني، الصغير والكبير أن هناك «قوى خير» تحارب «قوى الشر» حسب الألعاب الإلكترونية التي يعرفها الأميركيون والأوروبيون ووصلنا رذاذها. ووصل الأمر بتهديد دول وشعوب آمنة بحجة أو بأخرى، لأنها آوت أو موّلت الإرهابيين. ووفق هذا الأسلوب، «لم يعد هناك من هو آمن» و«الكل مستهدف» أو «سيصيبكم طرطوشة، إذا لم ..» أو «إما أن تؤيدونا أو تخسروا ...». وصار على الفلسطينيين، إذا أرادوا السلامة، القبول بالتعايش مع الاحتلال. وصارت النبرة الإعلامية تردد هذه المقولة حتى يسلم الشعب الفلسطيني وقيادته من بطش الاحتلال.

الأسلوب الثاني: كلمة اليوم، هذا الأسلوب أشبه بـ«حكمة اليوم» التي تظهر في الصحف اليومية، ووفق هذا الأسلوب، تضع النظم السياسية الكبرى «الأمر اليومي»، كما أوامر الجيوش، لوسائل الإعلام.

فمثلاً، يطلق الزعيم بوش كلمة يقول فيها إن صدام تعاون مع بن لادن، فتبدأ جميع وسائل الإعلام بالزعيق والتطبيل على نغمة الأمر اليومي حتى يأتي «الأمر الذي يليه». ومثال آخر عندما يقول بوش أن الرئيس الفلسطيني «ياسر عرفات لم يعد شريكاً في عملية السلام» لتبدأ وسائل الإعلام العالمية بترداد هذه المقولة باعتبارها نصاً مقدساً.

وأتقنت وسائل الإعلام الكبرى، هذين الأسلوبين بجدارة، فوكالات الأنباء الكبرى، التقطت كل همسه في الموضوع الساخن وروجت لها على رأس الصفحة، فالوكالات الكبرى العالمية (رويترز، وأسوشيتدبرس، يونايتدبرس انترناشيونال) باعتبارها جزءاً من «سياسات القوة» (power politics) وتلتقي مصالحها مع السياسات الخارجية للدول الراعية لها، أدت واجبها على أكمل وجه في متابعة السياسيين والتصريحات التي تقف مع أو ضد، وقسمت العالم إلى قسمين، جبهتين، ضدين، معسكرين: معسكر ضد الإرهاب، ومعسكر في الخندق الآخر.

والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائياً، في ظل القيود التي كبلت وسائل الإعلام الوطنية و«الأوامر اليومية» للوسائل العالمية، ماذا حل بالرأي العام العالمي؟ لقد تشوّه في المرآة المشوهة التي طرحتها الفضائيات والإعلام العالمي بما فيه الإنترنت الذي أخضع للرقابة بقرارات «أشبه بالعرفية». ولم نعد نعرف ما هو الرأي العام؟! هل هو الكامن، الظاهر، الصامت، المعلن؟ ... أم الأكثرية والأغلبية التي تديرها السياسات والنظم الديمقراطية بجدارة؟

صار من السهل على المحللين والمنظرين في حقول الإعلام والاتصال وعلم الاجتماع إلقاء اللائمة على وسائل الإعلام في تحليل الظواهر وآليات التأثير. ولكن المعروف أن التأثير متبادل بين الطرفين، ففي نظرية «ترتيب الأولويات» يقوم الناس بوضع أجندة الإعلام كما يقوم الإعلام بوضع أجندتهم.

ولكن السؤال الجديد، هو: من هم هؤلاء الناس الذين يضعون أجندة الإعلام في ظل التمركز الهائل لوسائل الاتصال، وعندما أصبحت وزارات الدفاع في الدول الكبرى هي التي تدير الإعلام العالمي، ويهيمن أباطرة إعلام بعدد أصابع اليد الواحدة على ٨٠٪ من وسائل الإعلام العالمية.

أعتقد أن الإعلام لا يصنع ولا يعلب الرأي العام فحسب، ولكن «الرأي العام الحقيقي» مغيّب أو غائب في بوتقة «الأغلبية الصامتة» التي تقودها عالمياً حركات ضعيفة ذات صبغة يسارية أو سلامية كالخضر، أو معارضي العولمة، وغيرهم.

والذي يعمل في حقل الإعلام يرى أن الحقل الذي يعمل فيه «يحاول» قدر الإمكان دون طائل في التأثير على الرأي العام الذي «تتجاهله» القوى السياسية المهيمنة والمسيطرة.

من يستطيع قول كلمة «لا» في ظل وجود «طغمة» سياسية متجبرة تسيطر على صنع القرار السياسي والعسكري.

الإعلام يحاول تأدية واجبه على أكمل وجه، ويحاول كشف لبس الأحداث والتطورات. نقول «يحاول». وبالإضافة إلى هذه المحاولات المتعثرة تقوم وسائل الاتصال والإعلام بوظيفة صنع «الأنموذج». وهذا هو سبب نجاح العديد من رجالات الكون، في بحر «الكونية والعالمية»، فمثلاً، ذكرت السيدة جودي وليامز، وهي منسقة اللجنة العالمية لحظر الألغام البرية، وهي منظمة غير حكومية تدعو إلى نظام أمن عالمي، ومقرها الولايات المتحدة، الحائزة على جائزة نوبل للسلام، ذكرت أن سر نجاحها في تجاوز العقبات ومعارضة الولايات المتحدة لها والقوى المتنفذة المتحالفة معها كان البريد الإلكتروني ووسائل الإعلام؛ التي رفعت رؤيتها وحلمها إلى الشمس والعالمية.

بالإضافة إلى ما سبق، نجد أن وسائل الإعلام والفضائيات استطاعت خلق ما نطلق نحن عليه «النخب العالمية» من خلال عملية التشبيك للعالم بأوتوستراد معلومات سريع (الإنترنت) وكوكبة من الأقمار الصناعية في مدارات تقذفنا ليل نهار بما هو جديد.

ونضيف بأن وسائل الإعلام، بمساعدة هذا التشبيك جعل الدول أكثر قدرة على ملاحقة المجرمين، وسهل على أميركا نفسها مهمة «محاربة الإرهاب»، وأصبح بالإمكان ومن خلال هذه الوسائل التنويه إلى المخاطر العالمية التي تهدد البيئة.

كما لعب الإعلام دوراً في «أفول السيادة» ونقلت السلطة والرقابة من الحكومات إلى المؤسسات الأهلية، فحول الإعلام الدول إلى «خردة».

تجهد وسائل الإعلام نفسها من أجل كسب رضى الجمهور قدر الإمكان، وتبحث عن المبررات لكسب حواسه. فالتنافس الشديد يدفع الكثير منها إلى التجاوز الأخلاقي؛ فالناس تبحث عن شيء يعلمها بالحقائق، وينقلها من واقع معاش إلى آخر افتراضي، خارج العقل والواقع أحياناً. فليس غريباً انشغال الشباب بعالم الإنترنت، ونلحظ أن الشباب يلجأون إلى التواصل، في ظل الظروف الصعبة، من خلال الإنترنت.

لقد أصبحت الشبكة العنكبوتية العالمية وخدماتها العالمية بوابة الانطلاق إلى رحاب العالم الحر بالنسبة للشعوب المنغلقة والمسيطر عليها من حكومات متجبرة. وصار جهاز الكمبيوتر ميتاً بلا روح الإنترنت.

إذن، أصبحت وسائل الإعلام وأدوات الاتصال ضمائرنا التي دونها نشعر بالغبن. بها فتحنا أعيننا على التلاعب العالمي بمصائر الشعوب والأفراد. ومثال العراق صارخ.

فالإعلام بات يرفع الحكومات والدول ويهد عروش. فحكومة بلير عصفت بها ريح إعلامية شديدة قادتها البي بي سي.

ولندقق مثلاً بمصير حكومة الحريري الأولى التي سقطت نتيجة عدائها لوسائل الإعلام (السفير على ما نعتقد). وهذا كان مآل «حكومة أبو مازن الفلسطينية» التي لم تستوعب باعتقادنا معادلة الإعلام واشتراطاته ... جدل الإعلام. ولم تستوعب اتجاهات الرأي العام الفلسطيني التي تقول إن من هو ضد القائد «أبو عمار» هو ضدهم. ومن هنا كانت الشعارات التي زيّنت ميدان المنارة وخاتمة شارع ركب التي تقول: الكل له وهو للجميع. أي بما معناه أننا لأبي عمار وأبو عمار لنا.

الإعلام قد يصنع وقد يبرمج ويفك برمجة العقائد والمذاهب والاعتقادات، ولكنه لا يعلب بالمفهوم الفابريكاتي السطحي. فالناس صارت تعرف وتحلل وتفكر، وإن كان فعلها ضعيفاً أحياناً، فإنها تمهل ولا تهمل.

شعور الفلسطيني بالغبن والضعف، قد يدفعه للاعتقاد بأن لوسائل الإعلام ضلعاً في مأساته، وإن كان في ذلك بعض الحق، فإن الإعلام ووسائل الاتصال منعت شطب الفلسطيني من المعادلة الشرق أوسطية، ومنعت طمس قضيته. فمقارنة بقضية الهنود الحمر في «قارة أميركا» الذين شطبوا تاريخياً بعيداً عن عين الكاميرا؛ استفاد الفلسطيني من وسائط الاتصال الحديثة في التعبير عن إرادته وطموحة، ويناصر القضية الفلسطينية الملايين في كل بقاع الأرض بفضل ملاحقة الأخبار والمعلومات عبر وسائل الإعلام العالمية.

فالإعلام أصبح قوياً وصاحب سلطة، أقوى من سلطة «المخيال» الذاتي المصنوع ميثولوجياً. صارت وسائل الإعلام هي التي تحيك مخيالات الناس عن أنفسهم وغيرهم وحتى عن أديانهم. المسألة هنا «من يلحق؟» «من يتابع؟» وماذا نريد نحن من وسائل الإعلام؟

رئيس دائرة الاعلام والتلفزة في جامعة القدس